جائزة سمير قصير لحرية الصحافة 2007
الفائز عن فئة "الصحافيين": **أحمد رضا بن شمسي**
الجنسية: مغربية
نشر المقال في مجلة **TelQuel** الاسبوعية المغربية في 29 تموز/ يوليو 2006
لغة النشر:الفرنسية

عبادة الشخصية

أحمد رضا بن شمسي

هل كان الأمر ضروريا حقا؟ لقد أعلن محمد الخامس، منذ بداية حكمه، بأنه لم يكن يرغب في هذا. ومع ذلك، يستمر الأمر (تقريبا) كما كان عليه من قبل: صوره في كل مكان، الحشود المتجمعة إلى جانبي الموكب الملكي،النفقات الهائلة على الأبهة والبروتوكول،نشرات الأخبار المتلفزة شبه الستالينية... لماذا لم يقم الملك بعد بشيء ضد هذا كله؟ من المستفيد في بقاء هذه "العبادة" عديمة الفائدة بقدر ما هي بائدة؟

هذا ما يرويه أحد أطباء الأمراض النفسية، الذي يمارس مهنته في إحدى مستشفيات الـ CNSS في كازابلانكا (الدار البيضاء)؛ بمعنى آخر، نجد أن زبائنه ينتمون إلى الطبقات الشعبية. من بين مرضاه، هناك شابة، في الثلاثين من عمرها، تعاني من مرض معروف إلى حد كبير: التعلق الغرامي الاستحواذي. ومن المستحيل إرضاؤها. في مثل هذه الحالات المماثلة، يُصار إلى جعل المريضة، بأن تتحقق بنفسها، بأن الرجل الذي تحبه ليس شخصا متكاملا إلى هذه الدرجة التي تتخيله بها. بأنه يملك عيوبا، بدون شك، مثل الجميع، وبأن أفضل شيء تقوم به، هو أن تنساه. إلا أن هذا الرجل، موضع السؤال، يدعى محمد الخامس وهو ملك المغرب. *"إلا إن قمت بإدخالها المستشفى – وهذا أمر لا يمكن مواجهته، نظرا إلى طبيعة مرضها – لا أستطيع، ببساطة شفاء هذه المرأة، يقول الطبيب متأسفا. كيف تريدون أن أقوم بذلك؟ ما إن تخرج من عيادتي، حتى تراه في كل مكان، وفي كل لحظة. فصورته تتبوأ كل الإدارات، كل المحلات، كل البقاليات. إن أرادت أن تشتري أي شيء، فعليها أن تدفع قطعا نقدية أو أوراقا مصرفية تحمل صورته. كل يوم، نجده تقريبا على صفحات الصحف الأولى، وما أن تشعل جهاز التلفاز أو الراديو حتى تراه أو تسمعهم يتحدثون عنه..."*. تعود هذه القصة الحقيقية – (وأغرب ما فيها أن الصفة الأساسية التي تعطيها هذه الحبيبة للملك هي ... التواضع!) – إلى سنوات خلت. ومنذ ذلك الوقت، لم تعد الفتاة الشابة إلى استشارة طبيبها النفسي، الذي أضاع أثرها. أين هي اليوم؟ لتتخيلوها في هذه الأيام التي تشهد حمى عيد تسلم العرش... تخيلوا درب جلجلتها حين ترفرف صورة حبها، المتعذر الوصول إليه، في جميع زوايا الشوارع، على ملصقات تبلغ طولها أربعة أمتار وعرضها ثلاثة أمتار. تخيلوا عذابها وهي ترى ألوف الأشخاص، يحتشدون على جانبي الطريق، رافعين صورة من اختاره قلبها وهم يهتفون بشعارات

في مجده... تخيلوا ضيقها وهي تعبر جادة محمد السادس، أو وهي تزور مراكز للمعوقين أو مؤسسات اجتماعية تحمل اسمه...

"تقليد مغربي عريق في القِدَم"

من البديهي أن هوس هذه المرأة ليس أمرا "طبيعيا". لكن هل أن هذه العبادة الجماعية لقائد دولة هو أمر طبيعي؟ منذ أن بدأنا نحن المغاربة بعرض أنفسنا، انتهى بنا الأمر بأن نجد بأنه أمر طبيعي. أو أنه، بالنسبة إلى أكثرنا صفاء، " ليس خطيرا إلى هذا الحد"...أهو كذلك حقا؟ لهذه الظاهرة اسم: إنها تدعى عبادة الشخصية. آه، بالطبع، ليست خاصية مغربية. العبارة بحد ذاتها أبدعها نيكيتا خروتشوف، في العام 1956، حين تتطلب منه الأمر أن تبرير برنامجه في "نزع الستالينية" أمام الحزب الشيوعي السوفياتي. ومذ ذاك الوقت، أصبحت كبقعة زيت، لكثرة الحالات المماثلة على كوكبنا هذا.فبحسب الفيلسوفة شانتال دلسول (Chantal Delsol)، فإن الأمر عائد إلى *"شكل من أشكال تشويه طبيعة السلطة عبر الإفراط بها. لذلك نجد شخصا وقد تأله، أي أصبح أكبر من الطبيعة، ليتم التصرف معه على هذا الأساس"*. كيف يتم ذلك؟ عبر استعمال واسع لوسائل الدعاية (البروباغاندة)، وبخاصة عبر وسائل الإعلام والأحداث الجماعية، أكانت أحداثا عفوية أم لم تكن. وتزداد الأمور تعقيدا في المغرب من جراء مفهوم "قدسية" الملك، الذي يملك قيمة دستورية، كما عبر تحدره المباشر من سلالة نبي الإسلام. هل أن "سيدنا" هو كائن بشري أم إلهي، هل هو مسؤول معصوم بطبيعته، يدين له الشعب بكل شيء؟

على الرغم من هذه المظاهر الواضحة، إلا أن المقربين من القصر الملكي، الذين طرحنا عليهم هذا السؤال، أظهروا لنا كلهم امتعاضهم. "عبادة الشخصية؟ أبدا! إن تمجيد مليكنا هو تقليد مغربي عريق في القدم؛ فقط تم تكييفه مع وسائل القرن الواحد والعشرين". إن المظاهر والرسميات الفرعونية، على قولهم، ليست سوى وسائل للمحافظة على "الهبة" الملكية، هذا التهيب السحري بشكل غامض الذي ليس سوى امتياز السلاطين في المغرب، منذ 12 قرنا أي منذ نشوء الدولة الشريفية. فالهبة، والناس مقتنعون بها حقا، هي أفضل أشكال الحكم الممكنة.*"إن اختفى ذلك، لن يعد هناك أي إمكانية للسيطرة على الشعب"*. ومع ذلك، يستطيع أي مؤرخ أن يثبت لكم عكس ذلك وبطريقة سهلة. لا أحد يجهل ذلك، لم يصبح المغرب "مسالما"، للمرة الأولى في حياته، إلا في النصف الأول من القرن العشرين – وهو مدين بذلك إلى المحتل الفرنسي. فلغاية ذلك التاريخ، كان المغاربة يتأرجحون باستمرار ما بين التبعية "للمخزن" (الإدارة المركزية)(*)
أو السيبا (المنشقون). ولا علاقة للهبة بذلك كله، إذ حتى أن قبائل السيبا كانت تبجل السلطان بصفته قائدا دينيا... مما كان لا يمنعهم أبدا من شن الحرب عليه مرة كل شهرين. أضف إلى ذلك: في القرن التاسع عشر، أُلقي القبض على السلطان مولاي سليمان، خلال إحدى المعارك، بينما كان يقود حملة ضد قبائل السيبا. ربما، بفضل هبته، عُومل بالاحترام التي تفرضها مكانته، قبل أن يطلق سراحه بعد ذلك بثلاثة أيام. لهذا، كانت الرسالة

واضحة:*"إننا نحترم سلطاننا، لكننا لا نقبل بسلطته"*. إذا، بدا هذا "التقليد العريق في القدم" وكأنه بديلا من آخر. يبدو جميع المؤرخين جازمين: إن كانت عبادة الشخصية قد تطورت بشكل مدهش من قبل الحسن الثاني، ومن دون أن يكو قد بحث عن ذلك في واقع الأمر، وإن كان محمد السادس قد ورثها، من هنا نجد أن من أطلقها هو محمد الخامس. محمد الخامس؟ أبدا، وهنا يصبح الأمر مثيرا.

(*) Makhzen أو Maghzen: إدارة مغربية، في عهد الحماية الفرنسية، والكلمة مأخوذة من كلمة "مخزن" – المترجم.

في أصل هذه العبادة... حزب الاستقلال!

إنه حزب الاستقلال الذي كان في أصل هذا العبادة غير المنطقية للقائد، والتي اتخذت في ما بعد، أبعادا سحيقة. لقد سمع الجميع بهذه الأسطورة التي أفادت بأن وجه محمد الخامس – الذي نفاه الفرنسيون بين عامي 1953-1955، قد ظهر على القمر لملايين المغاربة. لكن ما نعرفه بشكل أقل، أن مئات القوميين كانوا يتجولون في المدن، في تلك الحقبة، وهم يوزعون المناشير للشعب. ليست فقط مناشير نضالية تطالب بعودة السلطان المنفي... بل كانت بالأحرى بمثابة "طريقة استعمال تقنية" لكي نشاهد بن يوسف (اسم السلطان المألوف)على القمر. كان من يحمل منشورا في يده، مدعوا بأن يثبت تركيزه على نقاط معينة في طرف الورقة ومن ثم، وبعد أن تكون شبكة عينه قد اختزنت تناسق النقاط، بأن ينظر إلى الكوكب القمري. في جميع الحالات، كان يظهر وجه السلطان. ثمة تقنية بصرية كلاسيكية في ذلك، إلا أن غالبية مستعملي المناشير الساحقة كانوا من الأميين... فخلال سنتين، اتخذت أسطورة "القديس بن يوسف" – ولنستعيد هنا عبارة عالم الإناسة الأميركي كليفورد غيرتس – بُعدا مدهشا. إذ لم يعد الألوف بحاجة إلى هذه المناشير كي يشاهدونه على القمر، في الحلم... لمَ قام حزب الاستقلال، في الأساس، بعملية الأسطرة هذه؟ ببساطة من أجل الحسابات السياسية. كان القوميون يعتمدون على الحماسة الشعبية لممارسة الضغط على الفرنسيين من أجل البدء بعملية المفاوضات. وبن يوسف؟ كان من المفترض – طبعا - أن يعود من المنفى. بيد أن القوميين كانوا يظنون بأن الرمز سيكون صالحا لغاية الاستقلال ومن ثم "سنرى..". وهذا ما رأيناه في العشرين من آب (أغسطس) من العام 1955. استقبلت عودة السلطان بتظاهرات هيستيرية جماعية لم تعرف المملكة مثيلا لها، على مرّ تاريخها. لقد بدأت [ظاهرة] عبادة الشخصية الملكية، ولن تتوقف بعد ذلك أبدا.

داهية. في الحال فهم محمد الخامس الدرس الذي يمكن له استخراجه من هذا الوضع، في فترة كانت فيها عملية الإمساك بالمملكة تمثل كل شيء، إلا كونها مكتسبة.سرعان ما لعب الدور الذي رسمه له القوميون: دور الرمز المطلق، غير القابل للنقد، الذي لم يكن مستعدا أبدا للتخلي، قيد أنملة، عن امتيازاته التي أصبحت مقدسة. بما أنهم لم ينتبهوا إلى الخطر المحدق، استمر ثعالب الاستقلال الشبان في خطأهم، حين عينوا "عيد العرش" بمثابة العيد الوطني الأساسي. وأين هو عيد الاستقلال؟ لقد قام الحسن الثاني، بعد ذلك

بسنوات قليلة، بتحديد يوم 18 تموز (يوليو) 1955. وهذا ما شكل تشويها فعليا للحقيقة التاريخية. في ذلك اليوم، وفي خضم عودته الظافرة من المنفى، التي حدثت قبل يومين، ألقى محمد الخامس خطابا عن الاستقلال أمام حشد مكهرب. بيد أن المعنى الحقيقي لهذا الخطاب كان في إعلان، لا الاستقلال الرسمي، بل في قرب بدء المفاوضات، من جانب واحد، مع فرنسا –(برئاسته هذه المرة، حتى وإن كان العمل الأساس قد أجراه القوميون في إكس لي بان Aix Les Bains)- من أجل توقيع معاهدة استقلال متكاملة. وهذا ما حدث بعد ثلاثة أشهر ونصف، في الثاني من آذار (مارس) من العام 1956. هذا هو تاريخ استقلالنا الحقيقي، المكتوب في جميع كتب تاريخ العالم. لكن في كتبنا، ثمة حقيقة واحدة: إن استقلالنا موضوع في حساب جلالته الخاص، فهو "القائد السياسي" للقوميين، وقد أصبح بعد ذلك، "محرر" الأمة.

بعد "المحرر"، "المنقذ والموحد والجامع"

بما أن محمد الخامس قد توفي باكرا، بعد أقل من أربع سنوات على الاستقلال، نجد أن عبادة الشخصية، لم تذهب بعيدا خلال فترة حكمه. الحسن الثاني هو من رفعها حقا إلى مصاف الفن. كان والده "المحرر"؟ سيكون إذا "المنقذ والموحد والجامع". يقول أحد علماء الاجتماع: *"إن عبادة الشخصية مثل الحب:يبدأ بالعفة وينتهي بالبورنوغرافية"*. وهو يمر، من دون شك، بالاستمناء. ذهب الأمر بالحسن الثاني، لأن يعلن إلى كاتب سيرته إيريك لوران بالقول: *"لو في كل مرة أقام حزب مؤتمره ولو دخلت إلى القاعة معلنا: أرشح نفسي أمينا عاما أو رئيسا، لكنت انتخبت بالهتاف وبالإجماع"*. كان محقا بدون أدنى شك. لكن ليس فقط، كما قال، لأن [شعبه يحبه]. إذ نجد في تقرير دولي حول الوضع السياسي في إفريقيا بعد مرحلة الاستقلال بأن *"عبادة شخصية القائد والإجماع الرسمي عائدان إلى عنف الدولة المستندة على قوة مسلحة متضخمة تقريبا كما على شرطة سياسية موجودة في كل مكان، مطلقة الصلاحية. وما نكث بهذا العنف تواتر المؤامرات الخيالية أو الحقيقية، المحاكم الاستثنائية والسجون المشهودة، كل شيء، حتى المنظمات الإنسانية اشتكت من الخراب"*. هاكم ملخصا، دقيقا جدا، عن 38 سنة من الممارسة "الديمقراطية الحسنية". هل من الضروري فعلا، التذكير بتازمامارت، بدرب مولاي شريف، بالمحاكم السياسية المتعددة من جراء "المؤامرات" التي رصعت كل عهد حكم الراحل "الجامع"؟

بيد أن الخوف من الاضطهاد لا يفسر كل شيء،وهذا ما يظهر الفرق كله ما بين الحسن الثاني والعديد من المتسلطين الأفارقة في عصره. فبعيدا عن قبضته الحديدية، كان أيضا، ومثلما يقول عالم الاجتماع والمؤرخ عبد الله العروي، في كتابه المغرب والحسن الثاني، شهادة" (منشورات PIU، 2005): "كان لديه حسا خارقا بالإخراج لدرجة أن عالم اجتماع سيسميه يوما بالبرفورمر" (= رجل استعراض وتمثيل). في عهد الحسن الثاني، وصلت التشريفات وعمليات تقديم عظمته، إلى حد لا مثيل لها. أغنيات في مجده تنشد في حلقات من على شاشة التلفزيون، احتفالات ضخمة عند كل عيد وطني، ولكن أيضا في عيد ميلاده(!)... القاعدة البروتوكولية الأكثر ظهورا تحت حكمه، كانت بالتأكيد، عملية تقبيل يده

من قبل كل مغربي يلتقي به. بالطبع، لم يكن الحسن الثاني من أبدع هذه الحركة البطريركية التي تنم عن الاحترام، لأنها مورست في المغرب خلال الأزمنة كلها. لكن من المعلوم، وكما يشرح عبد الله العروي بأنه *"في زمن التلفزيون، تلعب عملية تقبيل يد الملك دورا سياسيا: إذ تهدف إلى "التمييز"، إلى أن تسم علانية، إلى أي درجة هذا الشخص أو ذاك مقرب من السلطة. لذلك كانت عملية مرغوبة جدا، كانت موجبة أكثر مما هي مفروضة. لذلك أيضا، لم تكن قبلة موحدة: أحيانا هي قبلة واحدة، أو قبلتان أو ثلاث، وذلك بحسب الرسالة التي ترغب في طبعها في روح المشاهدين، أكانوا حاضرين أم لا"*. بخاصة في روح غير الحاضرين، في الخارج. خلال حطم الحسن الثاني، كانت التحقيقات التلفزيونية تظهر أصحاب المقامات العليا وهم يتسابقون في المذلة، خلال عملية تقبيل اليد الملكية، إذ كانت عرضا ثمينا لدى الانتلجنسيا السياسية، لأنها تجد فيها بارومترا أكيدا عن مدى الحظوة أو زوالها. لقد سحب سيدنا يده بعنف من على فم هذا الموظف؟ اقترب موعد سقوطه. لقد رفع آخر واضعا يده على كتفه؟ سيتقدم إلى أعلى المناصب إذا. هكذا كانت التعليقات السياسية في زمن الاستئثار وراديو وتلفزيون المغرب.

في تشييع الحسن الثاني "بكى الشعب موت أبيه"

إن السيطرة على الراديو والتلفزيون في المغرب، اللذين كانا الوسيلة الإعلامية الوحيدة المتاحة أمام المغاربة خلال 30 سنة، كانت حجر الزاوية في عبادة الشخصية الحسنية. والخطاب الملكي؟ لم يكن يُنقل مباشرة فقط وبشكل كامل، بل كان يذاع وبشكل منهجي في جميع نشرات أخبار ذاك اليوم،وأحيانا في نشرات اليوم التالي. لا يمكن لأي شخص أن يحدد بدقة مواقيت نشرات الأخبار المتلفزة، إذ ثمة قانون فرض نفسه باكرا، كي لا تطرح المسألة مرة جديدة. يجب أن تنقل جميع النشاطات الملكية – حتى أكثرها تواضعا – بشكل كامل وفي بداية النشرة، وفي اليوم عينه. وهذا ما يفضي بالطبع لأن تتكيف نشرة الأخبار، في مدتها وفي ساعة بثها مع هذا الأمر.

وكما كان عليه الأمر في أغلب الأحيان فإن الشخصيات الخاضعة للعبادة في حياتها، تشعر بالندم وبارتباك، حين تحس بدنو أجلها. لهذا أعطى الحسن الثاني – الذي فتك به المرض – الأمر،وقبل موته بعدة أشهر، بأن يدفن إلى جانب والده وأخيه مولاي عبد الله، الذي توفي العام 1983. كان من المتوقع أصلا أن يوارى جثمانه في جامع الدار البيضاء، الذي يحمل اسمه. وهو من أكبر مساجد العالم بعد مسجد مكة. لقد أراد أن يترك هذا الصرح للتاريخ، ليكون شهادة عن عظمته الأبدية (والذي موله عبر عملية ابتزاز حقيقية للدولة بقيادة إدريس بصري). إلا أنه في 23 تموز (يوليو) من العام 1999، اتخذ قبر الحسن الثاني مكانه في ضريح محمد الخامس "المتواضع"، وهو قبر ذو مساحة ضيقة تدعو للتعجب. مع أن ندم الدقيقة الأخيرة لم يمنع مراسم الدفن الوطنية الفخمة، الممسرحة بشكل كبير، وإن كان من الصحة القول إن مراسم تشييع الحسن الثاني كانت استعراضية، فإن ذلك عائد – وبخاصة – إلى فيضان الألم الشعبي المثير للدهشة. فوفقا لأدنى التقديرات، أجتاح مليون مغربي مدينة الرباط، نهار الأحد الواقع في 25 تموز (يوليو). زد إلى ذلك، تدخل الجيش لاحتواء الحشود خارج العاصمة التي وصلت إلى حد الامتلاء. ثمة

حزن حقيقي، فيضان دموع ومشاهد هيستيرية. هذا ما رأيناه، ذاك اليوم، عند الآلاف. لم يشذ ذلك عن وسم الصحافيين الغربيين الذين جاءوا لتغطية وداع المغرب لمليكه. مصطفى علوي، المقدم الأساسي لنشرة الأخبار ولراديو وتلفزيون المغرب منذ 25 سنة، انهار باكيا، على الهواء مباشرة وهو يعلن موت جلالته. من هنا نستنتج بأن ثمة حبا مجنونا وعاما كان موجودا تجاه العاهل الراحل، وبأن ثمة خطوة يجب القيام بها. بيد أن ذلك، لم يمنع ولو للحظة بطبيعة الحال، وسائل الإعلام الرسمية من اجتيازها. عالمة السياسة مونيا بيناني – شرايبي قدمت من وجهتها شرحا مختلفا تماما: كل ذلك، في جزء كبير منه، هو ثمرة 38 عاما من الأبوة السياسية. *"كان الشعب يعتبر الحسن الثاني بمثابة أب له، وهو نفسه كان ينادي المغاربة "بأولادي". يمكن للمرء أن يحظى بأب سيء، يمكن لنا أن نشعر بالرعب من والدنا. لكن حين يموت، نبكيه، لأنه والدنا".*

في البداية، رغب محمد السادس في أن يبقى متواضعا.

هل عبادة الشخصية يمكن أن نتوارثها؟ ظاهريا، وفي بداياته، لم يكن محمد السادس يرغب في هكذا إرث. إذ ساعد، وبسرعة، على تكوين عنه صورة "ملك الفقراء"، وهي صورة ساعدت على انتشارها وسائل الإعلام (المحلية والدولية)، لأنها كانت متلهفة لإطلاق الصفات. محمد السادس؟ ملك شاب متواضع"يتوقف على شارات السير الحمراء"، "يرغب في تخفيف المراسم"، مثلما يرغب وقبل أي شيء، في "إعطاء صورة إنسانوية عن حكمه". صفق المغاربة لذلك بالطبع. لكن ألم يكن ليصفقوا، بطبيعة الحال، حتى ولو أظهر الملك الجديد انه يمتلك روحا مخالفة كليا؟ يستحق السؤال في أن يطرح، لأن جدلا جديدا لم يتأخر في الظهور: ألن يعاني المغرب، وعلى رأسه محمد السادس، من "عجز في السلطة". لا يهم.يؤكد أحد رؤوساء العاميات الحضرية، بقناعة:*"ما بين 6 أشهر وسنة، كانت الاحتفالات الرسمية أكثر "حمية"، وكان من الواضح بأن هناك مظاهر وسجاجيد ومراسم أقل...لكن وبسرعة، يضيف بالقول كما لو أنه يأسف لذلك، عادت الأشياء إلى حالتها الطبيعية"*. هل أصبحت التشريفات اليوم أقل؟ بالأحرى لقد تحصنت بعد البرهان.

من الواضح، إن أكبر المراسم المفروضة، أي تقبيل يد الملك، قد سجلت أكثر من اختراق. بعض الجريئين الذين وجوا أنفسهم أمام الملك، اجتازوا ذلك بدون تعقيدات عبر شدهم على يد الملك بحرارة وهم ينظرون إلى عينيه – ما سبب صدمة لملايين المشاهدين.تحت حكم الحسن الثاني، كان من غير المعقول حدوث ذلك! لكنه الاستثناء، على الرغم من خيبة "تقدميي" المملكة القليلين، الذي لم يصبح القاعدة. لقد أعلن محمد السادس بأن الطريقة التي يحييونه بها، لا تهمه كثيرا. إذا، وفي العمق،يستطيع مقبلو الأيدي أن يستمروا في تقبيل يده، فهذا أمر لن يزعجه أبدا.

فجأة تغيرت طبيعة عرض المراسم الملكية المتلفز، إذ لم تعد الحظوة أو انتفائها، تقاس بحركات الملك أو بإشاراته. بالأحرى صار الانتباه مشدودا إلى جرأة الموظفين ليقارن الذين أتوا لتحيته. نادرون هم الرسميون الذين بقوا لمرة واحدة وأخيرة عند مصافحة اليد. وبخلاف ذلك، عديدون هم الذين رفعوا ما بين الرغبة في استعادة بعض من كرامتهم المفقودة وما بين الخوف من أن الكثير من الجرأة قد تضر بموقعهم في

القصر. لكن، فجأة، بقيت الغالبية في موقع المقبلين ... لكن ليس يد الملك. الأكثر تحررا أصبحوا يقبلون الكتف، تماما كما كانوا يحيون سيدي محمد عندما كان لا يزال وليا للعهد. أما الآخرون، يقبلون المنطقة التي يختارونها: العنق، الساعد، العضلة ذات الرأسين... العبرة من ذلك: كلما ارتفع المكان، كلما كان الموضوع أجرأ... لكن من دون أن يتمكن أحد من اتهامهم بالتمرد على "تقاليد الأسلاف". هل كان كل أصحاب المقامات هؤلاء، نخبة الأمة، يعون سخافة الوضع؟ مثلما رأينا، كانت عملية تقبيل يد الملك، تمثل كل شيء ما عدا أمرا واحدا لا قيمة له بدون نتائج. إنها حركة سياسية تشير إلى الخضوع المطلق – إنها موقف على النقيض من هذه "الديمقراطية" التي يرغب الجميع – من داخل القصر كما من خارجه – ويزعمون بأنهم ينوون إقامتها.

لقد فهم الأمر، إن تقاليد المراسم التشريفية، ليست بريئة إذا، إذ تساهم في تمتين عبادة الشخصية، تشيدها بوعي كلي، كما لو أنها أداة حكم. بالإمكان مضاعفة التفاصيل العائدة إلى هذا النوع، وهي كلها، تحيلنا إلى قلب إشكالية سياسية للغاية: الملك هو أكثر من قائد، إنه نصف إله علينا تبجيله، من دون أي تعليقات إن أمكن. فمثلما يذكر عبد الله العروي *"كل المراسلات الرسمية تبدأ بصيغة "السلام الشامل بفضل وجود سيدنا الإمام". من يرغب في معرفة من أين تأتي هكذا صيغة وما تشير إليه، ومن ومتى قرر أن يجعلها موقع التشريف؟"* أضف إلى ذلك، من قرر، ذات يوم، وقبل أن يقوم، أمام العامة، بقراءة ظهير (= مرسوم سلطاني في المغرب)أو رسالة ملكية، عليه أن... يقبلها.. في حين أنها ليست في نهاية الأمر، سوى قطعة ورقية؟ ليس محمد السادس في جميع الأحوال. وليس الحسن الثاني أيضا، كما يبدو بحسب المقربين من السراي. لربما كان شبه الوثنية. الراحل أحمد بن سوده الذي افتتح، ذات يم، هذه الممارسة شبه الوثنية. لكن، ومنذ ذلك الوقت، ثمة نموذج قد تم فرضه، ون لا يرضخ لذلك فهو محكوم بأن يلفت الأنظار إليه، وعلى مسؤوليته. في عهد محمد السادس، من المؤكد تقريبا، أنه إذا امتنع المعنيون عن القيام بذلك، فلن يوجه اللوم إليهم أحد. بيد أن العديدين لا زالوا يقبلون "الظهير" أو الرسالة الملكية قبل أن يقرأوها أمام عدسات الكاميرا وذلك لسبب واحد: تحمل الختم المقدس...

إن كانت بعض الاحتفالات الخرقاء، (كتلك التي ينهمك فيها الحاكمون في الاحتشاد على رصيفي السكة الحديد للتصفيق عندما يمر القطار الملكي) قد اختفت مع الحسن الثاني، فإن ثمة احتفالات أخرى لا تزال حاضرة، كمثل احتفال "الإنصات"، حيث يجتمع المنتخبون والوجهاء، في كل مقاطعة، ليتابعوا ويصفقوا للخطبة الملكية أمام جهاز التلفزيون!

من النشاطات الملكية الكاملة إلى التلغرافات

بقي التلفاز وسيبقى العامل الأول في عبادة الشخصية الملكية. فالقناة الأولى، عرفت دائما تقدما ملحوظا على منافستها قناة الدار البيضاء. الظاهرة الوحيدة التي أطلق محمد الخامس ضدها فيتو حازما، منذ أن اعتلى العرش، منع بث الأغاني التي تمجده. أما بقية الأشياء فلم تتغير، فلا يزال الجميع يقرأون، وبشكل ديني، عبر نشرات الأخبار، أصغر تلغراف رسمي أرسله الملك أو تلقاه. كل يوم، يتمنى قائد دولتنا عيدا سعيدا لأحد أقرانه، يرسل التعازي إلى آخر، يهنئ ثالثا بمناسبة العيد الوطني، هذا النوع من النشاط التشريفي،

مشترك بين جميع زعماء دول العالم. وبخلاف ذلك، قلة هم مدراء المراسم، كعبد الحق ليمريني، الذين يرسلون منهجيا، وبالفاكس، كل التلغرافات، حتى الأكثر سخفا، إلى التلفزيون الوطني مع ملاحظة مكتوبة "تذاع وتبث"، وهي ملاحظة ترن بحدة كنها أمر. من البديهي أنه أمر لا يستطيع معارضته أي جريء.

أما بالنسبة إلى "الدارج" في عبادة الشخصية من على الشاشة، أي في تغطية النشاطات الملكية "المقدسة"، فلم يتغير أي شيء، منذ اعتلاء محمد السادس العرش. لا تزال النشرة الإخبارية وراديو وتلفزيون المغرب مستمرين، بكونهما مطاطين بشكل جنوني، وذلك وفقا للنشاط الملكي خلال النهار. آلية ذلك بسيطة: فخلافا لكل الباقي في نشرة الأخبار، تهرب النشاطات الملكية من مراقبة مديرية الأخبار تصور ويُعلق عليها وتُمنتج وترسل دفعة واحدة إلى إجارة التحرير كل مساء، عبر الثلاثي الذهبي الذي يتحمل المسؤولية الخاصة بأكملها ويتألف من محمد المودن (مدير الأخبار السابق في راديو وتلفزيون المغرب خلال عهد بصري)، مصطفى علوي (الرجل الأساس الذي انهار باكيا أمام ملايين الناس لحظة موت الحسن الثاني) ومحمد داوودي (الذي كان دائما الرجل البديل لعلوي، في الفترة التي كان يترأس فيها النشرة الإخبارية)، ولنضف إلى هذا الثلاثي المصور محمد رجب ولنتذكر بأن هؤلاء الأربعة، هم في مناصبهم منذ 20 أو ثلاثين سنة، ونستطيع أن نفهم لِمَ قد تصل التحقيقات حول النشاطات الملكية إلى أكثر من عشرين دقيقة دائما، وهم يرشحون دوما بذات التعليقات المناصرة للستالينية من نوع *"وها هو صاحب الجلالة يحيي شعبه الوفي بيديه الكريمتين تحت هتاف الجماهير"*.

إن المعالجة التلفزية للنشاطات الملكية، هي مسألة أشخاص أكثر من كونها مسألة نسق. من هنا، تخطت قناة المغرب الثانية، وبدون تعقيدات، كل الأثقال التي لا تزال تكبل راديو وتلفزيون المغرب، كلها تقريبا، وإن كانت ضرورة تغطية كل النشاطات الملكية لا تزال قائمة إلا ان طريقة القيام بها أصبحت منوطة بتقديرات مديرة الأخبار سميرة سيتايل ولصحافييها. في العام 2002 أوجدت القناة الثانية فريق عملها الملكي الخاص بها، في حين أنها كانت لا تزال متعلقة، لغاية تلك اللحظة، بالصور التي تبثها راديو وتلفزيون المغرب. حينذاك، بدأنا نرى موضوعات تتراوح بين دقيقة ونصف إلى دقيقتين، حيث يتم التعليق على النشاط الملكي... صحيح أنه يأتي من دون أي مسافة نقدية (ولا نحلم بذلك قطعا) لكن بدقة واقتضاب. لم يعلق القصر الملكي بأي شيء! استمر الأمر إذا... من هنا أصبحت النشاطات الملكية تقدم إما على شكل ريبورتاج (قصير نسبيا) وإما بطريقة "خارج إطار الصورة" (off ، تمر صور الملك على الشاشة حيث نسمع تعليق مقدم النشرة الإخبارية) وإما عن طريق "الأخبار على البلاتوه" (فقط هو المقدم أو المقدمة من يتحدث بدون صورة الملك). وعلى الرغم من ذلك، لا تزال النشاطات الملكية تفتتح النشرات الإخبارية، وإن كان هناك حدث كبير، وطني أم دولي، فإن النشاط الملكي يعلن عنه في المقدمة، قبل أن يخلى المكان للريبورتاج حول حدث اليوم، ومن ثم نعود إلى هذا النشاط، وهذا دليل على أن التغيير (المراقب) ممكن...

يتحمل الشعب مفهوم العبادة الشخصية لأن..."لا أحد يعرف ما قد يحدث

والشعب بين ذلك كله؟ إما أن يكون الناس المتجمعين على الأرصفة من أجل الهتاف للموكب الملكي قد أتي بهم إلى هنا في الحافلات البلدية وإما تكون شعارات وأعلام الملك، كما رايات أخرى، قد وزعت عليهم من قبل السلطات المحلية، ومع ذلك فإن ذلك لم يمنعهم أبدا من الهتاف للملك بحرارة، من دون أن يجبروا على القيام بذلك. لا يمنعهم ذلك أبدا، حتى وإن مدت أمامهم الميكروفونات على سبيل التسلية، لوجدناهم يهتفون بكل التبريكات الممكنة على رأس "سيدنا"، نَصَرَهُ الله. هل يتأتى ذلك من حب طاهر للملك؟ بالأحرى، يبدو الأمر من قبل "إستراتيجية مسبقة" مثلما يقول عالم الاجتماع محمد طوزي. بمعنى أنهم يقومون بذلك، بداعي القلق وبشكل غير واع تقريبا، أي يحاولون تقليل الخطر من أن يتعرضوا لشيء مزعج، إن لم يظهروا أنفسهم متحمسين كفاية. ما الذي يمكن أن يحدث لهم؟ إن كان وضع حقوق الإنسان ليس مشرقا بعد في المغرب، فمن البديهي أنها قامت بخطوات جبارة منذ رحيل الحسن الثاني، ولكن ذلك لا يكفي، كما يبدو، من أجا إبعاد هذا الحس الضاغط بـ "لا أحد يعرف ما قد يحدث"... بمعنى آخر، إن أنشد الناس المدائح للملك وللملكية بشكل آلي تقريبا، فإن ذلك، من قبيل الصدفة. ثمة عنصر آخر للشرح، مع العلم أنه يبدو غير عقلاني: إن كان هناك عدد ضخم من المغاربة يداومون طوعا على عبادة الشخصية الملكية، فلأنهم ينتظرون شيئا خاصا من الملك.

يبدو الأمر الآن بشكل منهجي: في كل مرة يقوم محمد السادس، بزيارة على الأرض نجده يتخطى الشريط الأمني ليقترب من الحشود التي تهتف له، ليتلقى سيلا من المغلفات على رأسه. شكاوي شخصية من كل الأنواع. كيف يمكن لهؤلاء الناس أن يصدقوا بأن زعيم دولة يملك الوقت (والوسائل) لمعالجة مشكلاتهم الشخصية، حالة إثر أخرى؟

ثمة تفسير على ذلك من مقرب من الدائرة الملكية الأولى: *"هي رغبات الشعب التي تشكل ما تسمونه عبادة الشخصية، للملك سياسة قوية عن كثب، وهي تفسر بهذه الطريقة"*. يمكننا القول أيضا بأن ما يحدث حين تقوم مؤسسة – الملكية في هذه الحال – بكل شيء من أجل أن تضع شرعيتها مكان كل الشرعيات الأخرى (وبخاصة العدالة والإدارة الإقليمية). وضع ورثه محمد السادس تماما مثل عبادة الشخصية التي تحيط به.

هناك سلسلة من التحقيقات، قام بها محمد طوزي وطلابه حول "التصرف السياسي عند الشعب المغربي" أفضت إلى هذه الخلاصة المدهشة: قدر ثلثا الأشخاص الذين شملهم التحقيق بأن على الملك أن يحظى ... بسلطة أكبر! فنظرا إلى الدستور المغربي وإلى بنود مرسوم التبعية، يبدو ذلك مستحيلا بكل بساطة.

ثمة تفسير آخر لواقع تحمل الشعب وحتى محافظته – بدون تذمر – على عبادة الشخصية الملكية: إن العبودية هي سمة ثقافية عندنا، وحتى سمة دينية. فبحسب طوزي لا تزال مقولة *"عبد لله غير منفصلة عن الإنسان. ففي مقابل السلطة المطلقة لله هناك عبودية الإنسان المطلقة(...) من هنا تشكل العبودية الاختيارية تكملة للأمر الديني"*. فضلا عن ذلك، لكان النبي محمد قال (وهذا ضمن إعلان التبعية لملك المغرب) *"لا تطأ أرضا بدون سلطة، لأن الذي يجسد السلطة هو كظل الله والنبي على الأرض"*. لنجمع بين هذا وذاك، فعلى ما نحصل؟ تعايش العبودية مع وضعنا كمغاربة، لتشكل موضوعات ملك ذي حق الهي.

إن كان العديد من المغاربة ينادون الملك "سيدنا" في الجلسات الخاصة، ويضيفون عليها

"نصره الله" ما إن يمد أحد بميكرفون أمامهم، فذلك ليس بسبب الحب ولا بسبب الخوف، ببساطة لأنه واجب أو على الأقل، يعيشون الأمر بهذه الطريقة.
لا تبدو المطرقة الدعائية بغريبة عن هذا التصرف بدورها. إن كان المغربي، وحين نمد الميكروفون أمامه، غالبا ما يتمتم بصيغ من أجل تمجيد الملك، مصوغة بلغة متكلفة ليست هي باللغة التي يستعملها كل يوم، فلأنه يسمعها كل مساء من على شاشة التلفزيون، منذ أن ولد. فبعد 38 سنة من حكم الحسن الثاني، وبعد سبع سنوات من استمرارية نظامه، نجد أن عبادة الشخصية قد انطبعت، وبشكل غير واع، في تركيباتنا اللغوية.
على قول عالم الاجتماع والمؤرخ عبد الله العروي: *"ليس مظهر المصطلح المستعمل هو المهم بل تصرف المستمع التبجيلي ما سبّب ذلك؟ أهي التربية العائلية ومن ثم المدرسية؟ النسبة المرتفعة من الأمية؟ (...) فقر الخيال؟ لا أحد يعرف لأن لا أحد يرغب في وعي ذلك"*. في النهاية ما من تفسير واحد لهذه المسألة العميقة: لِمَ يستمر الشعب في عبادة الشخصية القائدة؟ بحسب عالم الاجتماع حسن رشيق: *"هناك عند الناس مخزون من المراجع السلوكية: العبودية، اللامبالاة، التمرد... إنهم يغرفون منها وفقا للظروف والأوضاع"*. ولكل شخص قراءته، الخاصة لا العقلانية، "للظروف والأوضاع".لِمَ شعر المغني أحمد سلطان بالحاجة لأن يحدد على غلاف ألبومه الأخير "تسامح" [لأن يكتب]*"الشكر الخاص لجلالة ملك المغرب نحمد السادس لأنه سمح لمواطن متواضع أن يكون صوته مسموعا*؟ لِمَ هذا الرجل، وهو إمام جامع في فاس، الذي سألته قناة المغرب الثانية، على هامش الزيارة الملكية، لِمَ صبّ شلالا من المدائح على الملك، دفعة واحدة، وخلال 50 ثانية، من دون تنفس، وقبل أن ينظر مباشرة إلى الكاميرا ليقول "نزيدك نِعم آ سيدي".

التأثيرات المضللة لعبادة الشخصية

ربما كانت عبادة الشخصية "طريقة حكم كالطرق الأخرى"، إلا أنها ليست معصومة عن التأثيرات المضللة. "*إن عبادة الشخصية تتطور بذات الآليات التي نمر بها خلال عبورنا من الشِرك (مذهب تعدد الإله، Polytheisme) إلى التوحيد (إيمان باله واحد Monotheisme)*، مثلما يجد – وبجرأة – عالم الإناسة حسن رشيق. لنترجم ذلك: هذا هو ما يمنع انبثاق أي فردانية قد تستطيع فتنتها أن تنافس فتنة الملك. ثمة حكاية وضح هذا التأثير الثانوي بطريقة شفافة وبشكل خاص. في العام 1986، كان المغرب يحتفل بيوبيل الحسن الثاني، بالذكرى الخامسة والعشرين على توليه مقاليد الحكم. من بين الأغاني التي مجدته، والتي بثتها محطة راديو وتلفزيون المغرب، يوم 2 آذار، كانت هناك الأغنية الشهيرة لتينا تورنر We don’t need another hero (لسنا بحاجة إلى بطل آخر). ولكي تكون الرسالة شفافة، ارتأى تقنيو المحطة أنه من المفيد تمرير صورة الحسن الثاني، في كل مرة تستعيد فيها مغنية الروك لازمتها الشهيرة... في محيطنا، لم نكن نجد تفسيرا آخر إلا بأن ثمة دسائس قد حيكت بشكل منتظم، من قبل الحلقة الملكية الأولى، ضد رئيس الوزراء إدريس جيتو. كان ببساطة شخصا مذنبا لأنه أصبح شعبيا بفضل تواضعه وطيبته.
من تأثيرات عبادة الشخصية أيضا أنها يمكن لها أن تسخف وبطريقة لا إرادية، موضوع العبادة. هذا ما أمكننا أن نقرأه في 9 حزيران الماضي، على الصفحة الأولى لصحيفة

"صباح الصحراء". كان العنوان على الشكل التالي: "بفضل تدخل الملك محمد الخامس شخصيا، يستطيع المغاربة أن يتابعوا 4 مباريات من بطولة كأس العالم لكرة القدم 2006" أى أن الجميع علموا في اليوم التالي بأن الشيخ صلاح كامل، الوكيل الحصري لحقوق بث بطولة العالم، كان قد أبرم الاتفاق عينه من كل الدول العربية. وتبا "للتدخل الشخصي".
وفق نمط أكثر جدية، نجد أن العبادة الشخصية قد صدت كل محاولات التطور. كم من ورش مؤسسات اجتماعية، وبعد الانتهاء منها، بقيت موصدة خلال أشهر، بانتظار أن تبرمج على المفكرة الملكية؟ حتى أننا رأينا مركز إسكان جديدا، للطالبات المعدمات، يفتح ا بوابه أمام هذه الشابات ... قبل أن يعود ويطردهن بدون إنذار، لأن المسؤول عن المركز علم بأن الملك يفكر في افتتاحه. من غير الممكن، والحال كذلك، من البدء بنشاط المركز، طالما أن جلالته لم يقطع الشريط. وتبا لمئات الشابات اللواتي وجدن أنفسهن، بين يوم وآخر، في الشارع. بشكل عام، نجد أن منتخبا محليا، يرثي قائلا "تتحرك مناطق الأقاليم من زيارة ملكية إلى أخرى"

لكن التأثير السلبي الخطر لعبادة الشخصية يكمن في أنها تحصر أمر العبادة في عزلة تامة. *"في الديوان الملكي، نجد أن إستراتيجية الهبة قد تحولت، منذ زمن، إلى طريقة حياة"* يتنهد ذلك الرجل الذي أتيحت له الفرصة، لفترة قصيرة، بالدخول إلى هذا العالم الخاص، *شعر مستشاروه بالرعب من أن لا يعجبوا الملك، لذلك لا يستطيعون مناقشة أي من أفكاره. فكيف إذا ستتم نصيحته بفاعلية في مثل هذه الحالة*؟ يصارع محيط الملك بقسوة، حتى الملك نفسه إن تطلب الأمر، كي يبقوا عبادة الشخصية التي تحيط به أمرا حيا. لا نستطيع تفسير الرغبة في تخفيف المراسم إلا بهذه الطريقة، وهي الرغبة التي عبر عنها محمد السادس في بداية عهده، والتي لم تستمر نارها مطولا. لِم يصرف هؤلاء الناس الكثير من الطاقة كي يبقوا عبادة الشخصية الملكية؟ لأن التخلي عنها سيهدهد وضعهم. من سيخسر إن لم تعد العبادة الشخصية دارجة؟ آمرو المراسم، في البداية. وبشكل عام كل الذين هم مقربون من الملك. يشرح أحد علماء الاجتماع بالقول: "في نظام العبادة الشخصية، تقضي السياسة في إظهار ما ينوي الأمير التفكير فيه. لذلك، تنتقل السلطة الواقعية من قدرة التأويل والسبق فوق رغبات الأمير". لذلك، إن كل من يمسك بهذه السلطة، مع الأمير عن كثب، سيفقدون كل شيء أن اختفى نظام عبادة الشخص...

كيف يمكن الخروج من ذلك؟

هل سيجد المغرب نفسه في مأزق؟ هل يمكننا ذات يوم، مع محافظتنا على النظام الملكي، أن نأخذ به صوب أبعاد أكثر إنسانية؟ بلى يجيب حسن رشيق، الذي يجاوبه، كصدى له، محمد طوزي.لكن شريطة أن نقترح نظاما عقائديا تناوبيا. إذ لا يكفي، على سبيل المثال،أن نشير إلى المغاربة "لا يزعجني الأمر لأنكم لم تقبلوا يدي". لأنه طالما وجد هناك من يستمر في التقبيل وطالما أن اؤلئك الناس استمروا في الاستفادة من المحاسن والخدمات، فلا أحد يستطيع أن يمنع النخبة من التفكير – حتى وإن كانت مخطئة في ذلك – بأن لا شيء قد تغير. ولا من الاعتقاد بأن الخدمات تكتسب، كما من قبل، أو على الأقل نحتفظ بها، عبر استمرارية مواقف التبعية الخسيسة. لكي نبقى ضمن مثال تقبيل اليد، يجب منع ذلك بوضوح. هذا ما قام به الملك عبد الله، ملك السعودية. كفى

مرسوم ملكي حتى لا يقوم أي شخص، في المملكة الوهابية، بتقبيل يد أحد.
لكن العقيدة لا تكفي. يجب أيضا وبشكل خاص تغيير نظام الحكم. طالما أن الملك سيبقى وحده موزع النعم والتشريفات، طالما بقي الموظفون العامون الكبار من أن يعينوا عبر ظهير مختوم بيده، من هنا لا يستطيع أحد من منع المرشحين من إظهار مذلتهم وعبادتهم. إنها الطبيعة الإنسانية، في لحس حذاء من ننتظر منه شيئا؟ ربما. في هذه الحالة، طالما أننا نعيد توجيه الدناءة تجاه المسؤولين السياسيين، عبر تفويضهم بتسمية الموظفين الكبار. إنهم ليسوا "مصونين ومقدسين" ولا يملكون أدوات دعاية مدهشة في خدمة الملك. إن تبعيتهم لا تستطيع أن تتقدم إلى ابعد. وعلى الأقل، ستبدأ الأحزاب السياسية باستخراج مصالح مفيدة، بدلا من أن تستمر في هذه السنوات الأخيرة بالقيام بهز البطن حول الدائرة الملكية الأولى، متمنية، وبشكل مجنون، أن يُقبل بها ذات يوم... في العمق، إن أفضل ترياق ضد عبادة الشخصية، تكمن في مأسسة العلاقات السلطوية. بمعنى آخر، إقامة الديمقراطية. ثمة خلاصة بديهية، نستطيع أن نبدأ عبرها.